المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	آراء ابن حزم في اللغة
المصدر:	دراسات عربية وإسلامية
الناشر:	جامعة القاهرة - مركز اللغات الاجنبية والترجمة التخصصية
المؤلف الرئيسي:	الأفغاني، سعيد المرحوم
المجلد/العدد:	ج55
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الصفحات:	7 - 26
رقم MD:	775941
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase, IslamicInfo
مواضيع:	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ، اللغة العربية، فلسفة اللغة
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/775941

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
الأفغاني، سعيد المرحوم. (2016). آراء ابن حزم في اللغة.دراسات عربية وإسلامية، ج55، 7 - 26. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/775941

إسلوب MLA
الأفغاني، سعيد المرحوم. "آراء ابن حزم في اللغة."دراسات عربية وإسلاميةج55 (2016): 7 - 26. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/775941

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

آراء ابن حزم فى اللغة

المرحوم سعيد الأفغانى(*)

آراؤه فى اللغة عامة :

نشأة اللغة من المسائل القديمة التي تعاور على محاور حلها الفلاسفة والعلماء منذ القدم، وطرقها علماء الإسلام فذهب قوم إلى أنها مواضعة واصطلاح ونماء تدريجي، ومن هؤلاء فى العصر الذى سبق ابن حزم : ابن جنى والفارسى، وذهب آخرون إلى أنها توقيف من الله وتعليم منه لعباده، وطاب لابن حزم أن يخوض هذا الميدان باحثًا فى المذاهب المختلفة فيه.

عرض رأى الذين قالوا بالوضع والاصطلاح فنقض قولهم بأمرين الأول أن "الاصطلاح يقتضى وقتًا لم يكن موجودًا قبله لأنه من عمل المصطلحين، وكل عمل لابد من أن يكون له أول فكيف كان حال المصطلحين على وضع اللغة قبل اصطلاحهم عليها؟ فهذا من الممتنع المحال ضرورة" .

والأمر الثانى : أن الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المصطلحين على وضعها أو بإشارات قد اتفقوا على فهمها وذلك لا يكون إلا بكلام ضرورة... فقد بطل الاصطلاح على ابتداء الكلام" .

وهناك من قال "إن الكلام فعل الطبيعة" ولم يفند ابن حزم تفصيلات هذا المذهب إلا أنه أبطله ببرهان نظرى رآه ضروريًا وذلك "أن الطبيعة لا تفعل إلا فعلاً واحدًا لا أفعالاً مختلفة، وتأليف الكلام فعل اختيارى متصرف فى وجوه

(*) هذا البحث الهام مقتطع من بعنوان (نظرات فى اللغة عند ابن حزم) ألقاها بمدينة قرطبة الأسبانية بمناسبة مرور (٩٠٠) عام على وفاة ابن حزم، فى ١٩٦٣/٥/١٢.

شتى" . وخصص بعض القائلين بأن الكلام فعل الطبيعة، فذهبوا إلى "أن الأماكن أوجبت بالطبع على ساكنيها النطق بكل لغة نطقوا بها" ومعنى ذلك فيما يبدو لى أن طبيعة المكان من سهولة ووعورة، وحرارة وبرودة، وجفاف ورطوبه وخصب وجدوية... كل ذلك ذو أثر على اللغة السائدة فيه. ولم يرتض ابن حزم هذا المذهب إذ هو – فى رأيه – محال ممتنع "لأنه لو كانت اللغات على ما توجبه طبائع الأمكنة، لما أمكن وجود كل مكان إلا بلغته التى توجبها طبيعته، وهذا يرى بالعيان بطلانه، لأن كل مكان قد دخلت فيه لغات شتى على قدر تداخل أهل اللغات ومجاورتهم فبطل ما قالوا" وانتهى من تفنيد هذه الآراء كلها إلى القول بأن اللغات توقيف من الله تعالى وإلهام منه وتعليم"، وهو قول مريح استراح إليه ابن حزم إذ خلصه من كل ما أورد من اعتراض على غيره.

وإذ وجد حل هذه القضية فى لجوئه إلى الغيبيات (الميتافيزيك) حلا له أن يعرض أيضًا لأمرين غيبيين تنازع فيهما المتنازعون ، الأول : ماذا كانت لغة الانسان الأول (آدم) ؟ والثانى : ما لغة أهل الجنة وأهل النار ؟ فأما السؤال الأول فقد سبق ابن حزم بأربعة أجوبة عليه فـ "قال قوم : هى السريانية ، وقال قوم : هى اليوناني، وقال قوم : هى العبرانية، وقال قوم : هى العربية" ولم يستطع ابن حزم القطع بأحد هذه الأجوبة أو بغيرها إذ كان الأمر من المغيبات وليس فى يده نص صحيح ، فأنهى العرض بالخاتمة التقليدية" والله أعلم" .

أما الأمر الثانى لغة أهل الجنة ولغة أهل النار (فلا علم عندنا – يقول ابن حزم – إلا ما جاء فى النص والإجماع ولا نص ولا إجماع فى ذلك)، وهذا هو نهجه السليم فى كل امر غيبى، ولقد سخر ابن حزم ممن ناقشه فى ذلك وادعى فيه نصًا وهو خبر الله عن أهل الجنة (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب

العالمين) فهذا يعنى أن كلامهم بالعربية وهو الذى حكاه الله فى القرآن، فقال له ابن حزم : (إن الله حكى عن أهل النار أيضًا قولهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) ، فينبغى أن يكون كلام أهل النار عربيًا أيضًا. قال الخصم (نعم) فقال له ابن حزم: (فاقض أن موسى وجميع الأنبياء كانت لغتهم العربية لأن كلامهم محكى فى القرآن عنهم بالعربية، فإن قلت هذا كذبت ربك وكذبك ربك فو قوله "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" وبذلك بطل أن يكون هناك نص فى هذه الدعوى) .

والظاهر أن المناقشات فى تفضيل لغة على لغة كانت دائرة فى مجتمع ابن حزم وقبله، وهو بطبعه يأبى كل ما ينصر عصبيةً بلا دليل : "وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة وإنما هى بعمل واختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة ... وقد غلط فى هذا جالينوس فقال : "إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع" قال ابن حزم : (وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكر جالينوس ولا فرق) .

هذا حكم ابن حزم فى اللغات عامة، فما حكمه فى لغته العربية المقدسة لغة القرآن والحديث والشريعة؟ لقد كان حكمه واحدًا على الجميع وما كان لمنصف مثله أن يحابى (لقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى، قال ابن حزم : "وهذا لا معنى له لأن الله أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فبكل لغة نزل كلام الله ووحيه) ... ثم يشير إلى الغلو والشطط فى العصبية الموقع أحيانًا فيما ينافى الأخلاق جملة فيقول : (وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود إلى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل

بغير العبرانية، وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها، وفى هذا من السخف ما ترى !!) .

نودع هذا الجانب الغيبي لقضايا تتعلق باللغة عامة وقد ذيلها ابن حزم جميعًا بقوله : (فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة وبالله تعالى التوفيق) نودعها لنستقبل له آراء اعتمدت على علمه ومشاهداته فتعجب بهذه الحصافة التى اهتدت إلى ظواهر أصبحت اليوم من المسلمات فى فقه اللغة، وعلم اللغة المقارن، وعلم الاجتماع.

اطلع ابن حزم على السريانية والعبرانية اطلاعه على اللاتينية، وكان مولعًا بتفحص الفروق فى اللهجات الدارجة التى يسمعها حيثما حل وارتحل، فهداه تدقيقه إلى أن السريانية والعبرانية والعربية كانت لغة واحدة، وضرب للفروق الأولى بينها مثلاً مما عاين فى اللهجات، والظاهر أن هذا الذى انتهى إليه من أن اللغات أسر كالبشر لم يرتب فيه قط قال : (إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينًا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش (احتكاك) كالذى يحدث من الأندلسى إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيروانى إذا رام نغمة الأندلسى، ومن الخراسانى إذا رام نغمتهما، ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله وهذا تصوير للتطوير الدائب لحياة اللغة ليل نهار.

يستمر ابن حزم فى الإبراه على أن تطور اللهجات ينتهى بقيام لغة جديدة مع الزمن أصلها كان لهجة، ويسجل لنا تحريفات شاعت فى المتكلمين باللغة العربية من العوام أو من الأجانب المتعربين، فيلاحظ أن (العامة قد بدلت

الألفاظ فى اللغة العربية تبديلاً، وهى فى البعد عن أصل الكلمة كلغة أخرى ولا فرق ، فنجدهم يقولون فى (العنب) : (العينب)، وفى (السوط) : (أسطوط) وفى (ثلاثة دنانير): (ثلثداً). وإذا تعرب البربرى فأراد أن يقول (الشجرة) قال: (السجرة) ، وإذا تعرب الجليقى أبدل من العين والحاء هاءً فيقول (مهمدا) إذا أراد أن يقول (محمدًا) وينتهى من هذه الملاحظ ليقرر أن من تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة فى الأصل" هذا ولست أدرى دليله فى دعواه التى يختم بها ملاحظته السابقة : "وإذ قد تيقنا ذلك فالسريانية أصل العربية والعبرانية معًا". لم تكن العربية هى أصل السريانية عنده؟ سؤال لم يتحفنا هو بجوابه .

ولا أنتقل بكم بعد هذا إلى نظراته فى اللغة العربية خاصة قبل أن أشير إلى أنه عنى كل العناية بتسجيل أثر العامل السياسى للغة، عنايته بملاحظة العوامل الاجتماعية، فقد انتبه إلى أنه (لا يقيد لغة الأمة وعلومها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علمهم) .

وإذا ذكرتم سبق ابن حزم لابن خلدون بنحو (٣٥٠) سنة، وأن ابن خلدون قرأ مصنفات ابن حزم وكانت رائجة فى المغرب منذ عهد الموحدين، وأنه يعزو إليها أحيانا، رأيتهم أن الفضل الذى ينسب لابن خلدون فى تأسيسه علم الاجتماع يجب رد شيء منه ولو ضئيلا إلى ابن حزم.

وله فيما نسميه الآن (اللغة الكاملة) رأى سديد سبق إليه، ويتمنى تحقيقه اليوم أصحاب كل لغة للغتهم، فبعد أن قرر أن (اللغة كلها حقيقة وذات أوضاع

صحاح، وعبارات عن المعانى) قال (ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى فى العالم اسم مختص به لكان أبلغ للفهم وأجل للشك وأقرب للبيان) ليت ذلك كان فحقق أمنية عالمنا القرطبى قبل تسعمائة عام وأمنيات علماء اللغة إلى اليوم.

وبذلك يبدو ابن حزم – حين يترك الأمر لعلمه ولملكاته لا لظاهريته – ففيها من فقهاء علم اللغة، صادق الحس، دقيق الملاحظة، حسن الاستنباط، صحيح الأحكام، فيه استعداد لشمول النظرة إذا أراد.

هذه بعض جولات ابن حزم فى اللغة عامة، فما آراؤه وجولاته فى ميدان اللغة العربية وعلومها خاصة، على حالها التى كانت عليه فى عصره؟

ذلك هو موضوع الحديث القادم :

آراؤه فى اللغة العربية وعلومها فى عصره:

لم يخالف أحد من علماء الإسلام على تباين مذاهبهم أن الفقه يستمد أحكامه – أول ما يستمد – من نصوص القرآن والحديث الصحيح، وعلى هذا تكون اللغة بمفرداتها أول ما يستمد، وتراكيبها أول ما يطالب الفقيه بإتقانه، حتى يصبح ذا ملكة قوية، تساعده على إحكام الفهم وأمن الخطأ. ثم أضافت أكثر المذاهب الإجماع إلى هذين الاصلين وزاد بعضها القياس.

وكان الوقوف عند ظاهر النصوص وعدم الأخذ بالقياس، شأن أكثر أصحاب الحديث منذ العصر الأول، ثم أطلق اسم (الظاهرية) فى القرن الثالث ، على أصحاب داوود بن على الأصفهانى (٢٧٠هـ) ولم يكونوا فى المشرق كثرة، وهم فى المغرب أقل، يكاد لا يلفت إليهم، ولم يدع أحد منهم إلى مذهبه، حتى جاء ابن حزم فملأ الأندلس بكتبه ومذهبه وشغل به الحكام والعلماء والناس.

وكان دستوره الذى لم يحل عنه ما عبر عنه بقوله:

لا أنثنى نحـــو آراء يقـــال بهـــا فى الدين بل حسبى القرآن والـــسنن

طبيعة المذهب الظاهرى تقضى أن يولى اللغة ومدلولات الألفاظ المقام الأول من العناية، لأن بناء المذهب كان على هذه الدلالات فحسب، وهو رد فعل للشطط الذى ارتكبه جماعة تهاونوا ببعض النصوص، إذا ساقهم القياس إلى خلافها تأولوها وأخرجوها عما وضعت له، فقام المذهب الظاهرى ليرد إلى كل حرف من هذه النصوص اعتباره الكامل، ويقف عندها لا يتعداها يمنة ولا يسرة. ويتضح ذلك فى صنيع ابن حزم بما حمل الفقهاء مثلاً كلمتى (أف) و (عبرة) من معانٍ أحكامها مسلمة عند الجميع، لكن تحميل الكلمتين لها هى موضع النقد بل التهكم عند ابن حزم.

قال الله تعالى فى بيان حق الوالدين : ولا تقل لها أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمًا" فقال القياسيون : (فما عدا الأف مقيس على الأف) فانبرى لهم ابن حزم يقول :

(فما فهم أحد قط فى لغة العرب ولا العقل أن قول (أفٍ) يعبر به عن القتال والضرب، ولو لم يأت إلا هذه الآية ما حرم لها إلا قول (أف) فقط، ولا خلاف فى أن شاهدين لو استشهدهما مضروب على ضربه فقالا : (نشهد أنه قال له : أف) لكانا بذلك شاهدى زور ... لكن اقتضى سياق الآيتين كل بر لهما قل أو كثر، وكل رفق، واجتناب كل إساءة، وبذلك حرم الضرب وغيره، لا بالنهى عن (أف) ولو كان قول (أف) مغنيًا لما كان حاجة إلى ما بعده) .

ولا يخل ابن حزم نقده للفهم الذى فهموه من كلمة (عبرة) من تهكم ظاهر فالكلمة وردت فى هذه الآية (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من

الله، فأتاهم الله من حيث لم يحسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) فاستدل القياسيون على القياس بقوله (فاعتبروا) ولم ينس ابن حزم فى رده أن يلفت نظرهم إلى السياق الذى وردت فيه الكلمة وأنهم حملوها ما لا تحمل البتة قال :

(فأما قوله تعالى "فاعتبروا يا أولى الأبصار" فلم يفهم أحد قط أن معنى (اعتبروا) : (قيسوا) ، ولا أن معنى (اعتبروا) : (احكموا للحديد والبلوط بحكم البر فى الزكاة)، والآية جاءت بعقب قوله "يخرجون بيوتهم .." فلو كان معناه (قيسوا) لكان أمرًا بأن نخرب بيوتنا كما أخرجوا بيوتهم. ومعنى الاعتبار فى اللغة والقرآن التعجب" .

والأمثلة مستفيضة فى كتبه وهى أكثر من أن تحصى، وحسبنا منها ما تقدم دليلاً على مذهبه الظاهرى فى اللغة. والرجل اتخذ الظاهرية مذهبًا فلسف به حياته وسلوكه وفقهم وعقيدته، وحتى غزله، أليس القائل:

وذى عذل فيمن ســبانى حــسنه يطيل ملامى فى الهــوى ويقــول :

"أمن أجل وجه لاح لم تر غيــره ولم تدر كيف الجسم: أنت عليــل؟

فقلت له أسرفت فى اللوم فانئــد فعنــدى رد لــو أشــاء طويــل

ألم تــر أنــى ظــاهرى وأننــى على مــا أرى حتــى يقــوم دليــل

ومن لم يستطع التخلى عن ظاهريته حتى فى غزله، كان فى اللغة مدلولاتها ظاهريًا محضًا وكان من المنطقى الطبيعى أن نجد فى كتبه ما ينسجم هو وسلوكه العملى فنقرأ فى مذهبه اللغوى الظاهرى هذه الكلية فى كتابه (الفصل) : "وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة فرض لا يجوز

تعديه إلا بنص أو إجماع، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها والشرائع كلها والمعقول كله" كما نقرأ فى كتابه (التقريب لحد المنطق) :

"ولا سبيل إلى نقل مقتضى اللفظ عن موضعه الذى رتب للعبارة عنه : وإلا ركبت الباطل وتركت الحق، وجميع الدلائل تبطل نقل اللفظ عن موضعه فى اللغة، ولا دليل يصححه أصلاً" .

كان من المتوقع أن نجد لابن حزم وقد تضلع من علوم العربية ورسخت ملكته فيها مذهبًا يساير المتقدمين والمتأخرين من العرب وسائر المسلمين وكثير من الأجانب، فى الاشادة بتقديسها وتفضيلها على غيرها، وقد أعجزنا ذلك، بل الأغرب أنا وجدناه لا يرى للغة فضلاً على لغة، وقد عرفت مما سبق آنفًا أن تلك هى نظرته الشاملة، وحتى من الوجهة الدينية لم ير للعربية على غيرها فضلا. ويرجح المطلعون أنه كان يعرف الاعجمية (الاسبانية) فلما اطلعت على مخطوطة التقريب لحد المنطق فى تونس (وقد طبعت أخيرًا فى بيروت)، أيقنت أنه يتقن اللاتينية التى طالع فيها تآليف اليونانيين فى الفلسفة والمنطق، كما عرف السريانية والعبرانية، وإذا فقد صدر فى حكمه بنفى التفاضل بين اللغات عن اطلاع وعلم، ونجن وإن لم نشاركه فى رأيه نعترف أنا لا نملك من الأدوات ما يسوغ لنا البت فى هذا الأمر، والذى نريد تقريره هنا، أنه كان يصدر فى أحكامه اللغوية عن حياد متحرر لا آثر للعصبية فيه، فقد كان فى محاولته الناجحة فى وضع مصطلحات المنطق حين أراد تقريبه إلى قراء العربية، يقف كثيرًا ويجتهد حتى ينتقى المصطلح الموفق الذى يفهم المراد منه بمجرد ذكره، وإنا لنحيى إنصافه وحريته حين يقر بقصور المصطلح الذى وضعه عن المصطلح اللاتينى، ولا يفعل هذا إلا متمكن فى اللغتين وفى العلم ذاته، ودان نفسه بالتحرر من كل اعتبار إلا الحق. وضع اسم الاستفهام (ما) ليسأل به عن الجنس والنوع، ووضع الأداة (أى) للسؤال

عن الفصل فى المتساويات جنسًا ونوعًا، ثم أحس بفضل المصطلح اللاتينى فى لغته فسجل أسفه بعد بذل الجهد بقوله:

"واعلم أن اللغة العربية لم تمكن العبارة فيها بأكثر مما ترى، على أن السؤال بـــ (ما) والسؤال بـــ (أى) قد يستويان فى اللغة العربية، وينوب كل واحد من هذين اللفظين عن صاحبه ويقعان بمعنى واحد، ومن أحكم اللغة اللطينية عرف الفرق بين المعنيين اللذين قصدنا فى الاستفهام، فإن فيها للاستفهام عن العام لفظًا غير لفظ الاستفهام عن أبعاض ذلك العام، ببيان لا يختل على صاحبه أصلاً :

وقال نحوًا من ذلك إزاء الكمية والكيفية"وهذه عبارة لم تعط اللغة العربية غيرها وقد تشاركها فيها الكيفية، وهذا يستبين فى اللغة اللاتينية عندنا استبانة ظاهرة لا تختل، وهى لفظة فيها تختص بها الكمية دون سائر المقولات العشر، وللكيفية أيضًا فى اللطينية لفظ يختص بها اختصاصًا لا إشكال فيه دون سائر المقولات، لا يوجد لها ترجمة مطابقة فى اللغة العربية" ولا يحتشم من إعادة هذا المعنى فى موضع آخر من الكتاب نفسه :

"وقد ذكرنا قبل أن هذه عبارة لم نقدر فى اللغة العربية على أبين منها، ولهذا المعنى فى اللطينية لفظة لائحة البيان غير مشتركة، لم توجد لها فى العربية ترجمة مطابقة لها فصير إلى أقرب ما وجد رافعًا للإشكال".

وبهذا وقفت على شمول نظرته حين يتكلم فى اللغة بوجه عام وأيقنت بأنه يحكم فيما يحسن ويتقن، ولما عرض للفظ الذى ليس فيه دلالة على الكلية ولا على الجزئية الذى سماه (المهمل) نبه على الفارق بين اللغات فى ذلك فقال :

"وذكر الأوائل أن المهملات لا تنتج .. وهذا فى اللغة العربية لا يصح، وإنما حكى القوم عن لغتهم، لكننا نقول إن المهملة ما لم يبين الناطق بها أنه

يريد بها بعض ما يعطى اسمها، أو لم يمنع من العموم بها مانع ضرورة فإنها كالمحصورة الكلية ولا فرق" .

سقت كل هذا الأنفى عن عالمنا ابن حزم ضيق الأفق وأنه لا يطلق حكمه على الشيء ولم ير منه إلا جهة قاصرة، وحين يعالج الموضوع العلمى يعالجه بعيدًا كل البعد عن الاعتبارات الأخرى مهما تكن إذ لا يرى فيه إلا ميدانًا الناس فيه من جميع الملل والنحل ومن كل العصور والدهور أسرة واحدة، وما خلفوا من تراث علمى وحضارى ملك لكل البشر لا يختص فيه وطن ولا جيل. ومن هنا طارت عنده حدود الزمان والمكان واندثرت عوامل العصبية والعواطف والأهواء .

اللغة فى مذهب ابن حزم أداة توضيح وتسهيل تيسر على البشر بلوغ أغراضهم، أما فى العلم فاتخاذها وسيلة إيضاح وتقريب أوجب وأوكد، والعلوم النظرية ألى هذا أحوج، وأشدها حاجة إليه المنطق الذى هو فى رأيه "علم مظلوم ونصر المظلوم فرض وأجر" وإذا كان رثاء ابن حزم للمنطق نتيجة الحملات العنيفة عليه من خصومه فإن لنا نضيف إلى ظلم الخصوم ظلم الأولياء، الذين أساؤوا إليه بأدائه إلى الناس على غير اللغة السهلة الواضحة، وهذه معركة آلى على نفسه أن يأخذ فيها بناصر هذا العلم المظلوم، داعيًا إلى مذهبه اللغوى الذى حث عليه مرارًا وطبقه فعلاً فى جميع كتبه على اختلاف فنونها. ويتلخص هذا المذهب كما أسلفت بأداء الأغراض العلمية بالألفاظ العامية الفاشية التى يفهمها عامة الناس، وتجنب كل مستغلق معقد عليهم. وقد عزا كثيرًا من الأذى اللاحق بعلم المنطق إلى الأداء اللغوى السيء حتى صار هذا الأداء تقليدًا متبعًا وشريعة مطاعة، فحمل معول الهدم بيد، وآلات البناء بيد : "فلما نظرنا فى ذلك وجدنا بعض الآفات الداعية إلى البلايا التى ذكرنا تعقيد الترجمة فيها وإيرادها بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال،

وليس كل فهم تصلح له كل عبارة، فتقربنا إلى الله عز وجل، بأن نورد معانى هذه بألفاظ سهلة سبطة، يستوى إن شاء الله فى فهمها العامى والخاص، والعالم والجاهل حسب إدراكنا .. وكان السبب الذى حدا من سلف من المترجمين إلى إغماض الألفاظ وتوعيرها وتخشين الملك نحوها الشح منها بالعلم والضن به.. إن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يسهل جهده ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكن ، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة، ويدعو إليه فى شوارع السابلة، وينادى عليه فى مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه، ويجزى الأجور لمقتنيه، ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه .... لكان ذلك حظًا جزيلا وعملا جيدًا وسعيًا مشكورًا" .

وهذا بالقياس إلى ما كانت عليه كتب المنطق ومعلموها ثورة تدك التقاليد دكًا، ودعم دعوته هذه بالعمل فشرح صنيعه فى التقريب لقارئ كتابه في المنطق، العلم :

"الذى وعرته الأوائل وعبرت عنه بحروف الهجاء ضنانة به، واحتسبنا الأجر فى إبدائه وتسهيله وتقريبه على كل من نظر فيه ... ولم نقنع إلا بأن جعلنا جميع الأنحاء من لفظ واحد فى الإيجاب ولفظ واحد فى النفى، ليلوح رجوع بعضها إلى بعض، ومناسبة بعضها بعضًا ووجوه العمل فى أخذ البرهان بها، فقربنا من ذلك بعيدًا، وبينا مشكلا ، وأوضحنا عويصًا، وسهلنا وعرًا، وذللنا صعبًا ما نعلم أحدًا سمح بذلك ولا أتعب ذهنه فيه قبلنا" .

وها نحن أولاء نصل إلى نقد القدماء كتاب المنطق لابن حزم، النقد الذى نجده عند كل من ترجم له، ولا يكاد يخرج عن قول صاعد: "استعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف (أرسطاطاليس) واضع هذا العلم فى بعض

أصوله، مخالفة من لم يفهم غرضه ولا أرتاض فى كتابه، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط" .

ولم يذكروا مسوغات هذا الحكم القاسى ولا تلك الأغلاط التى زعموها حتى يحكم القارئ، وإذا كانوا أنكروا عدوله عن اصطلاحات المناطقة العسرة اليابسة إلى اللغة المألوفة الواضحة، ولجوءه إلى انتزاع الأمثال من واقع الحياة المعروف للعامى والخاص بدلاً من التمثيل بالحروف ، فإنا لنجد فى هذا مزية ابن حزم الكبيرة وإبداعه المفيد، فمسائل العلم لا يتعبد فيها بألفاظ الأوائل والانجرار على أذيالهم، وإنما يلتزم فيها السهولة والإيضاح، وهذا هو التجديد الذى فاجأبه ابن حزم عصرييه المقلدين ، فلم يعطل ما يقضى العقل بفائدته العامة للناس ليحافظ على الرموز والحروف التى وضعها أرسطو باليونانية فيقسر القارئ العربى على ما لا يفهم إلا بالصعوبة الشاقة، هذا تحجير على العلم لا نشر له. وهناك تقليد يعرفه المشتغلون بالتراث العربى عن بعض النحاة ، يعقدون عبارات كتبهم حتى يضطر الناس إلى قصدهم وقراءتها عليهم، فيكسبوا بذلك ربحًا ماديًا ومعنويًا ، نزعة لا يمكن أن يقبلها بحال متحرر مثل ابن حزم وقف نفسه على إعلاء كلمة العقل والحرية ونفع الناس. لقد لاموه على ما يستوجب منا أعظم الحمد، فلما نشر كتاب (التقريب) وقرأناه ألقينا من أذهاننا ما علق بها من هذا النقد السطحى التقليدى، وعاينا الحقيقة سافرة وضاءة جميلة.

تكاد الكلمة تجمع على أن أجمل لغة كتبت بها الشريعة وضوحًا وإشراقًا هى لغة ابن حزم، يتضح هذا لمن قرأ مسائل الأصول فى كتابه "الإحكام" وقرأها فى كتب غيره، فإن طالب العلم لا يستطيع قراءة كتاب فى الأصول إلا على أستاذ مختص يشرح له تراكيبه وألفاظه ومسائله المعقدة، أما قارئ "إحكام" ابن حزم فلا يحس أنه يطالع مسائل غريبة عنه أو علمًا يحتاج فى

فهمه إلى أستاذ، وكتابه (المحلى) على أنه من أعظم كتب الشريعة على الإطلاق يطالعه طالب العلم بسهولة ولذة، ومتعة بما افاض عليه مؤلفه م حيوية وحركة فى أسلوبه الجدلى ولغته الجميلة المألوفة، وزاد من يسر كتبه على القارئين تعبيره عن المصطلحات بالألفاظ العامة التى يألفها كل إنسان على ما مر بك من صنيعه بفن المنطق حتى جعله معروضًا على الصبيان فى الطرق، وهذه مثالية فى نشر العلم وتسهيله، وهو ذو مذهب خاص فى وضع المصطلحات واضحة مفهومة الدلالة لكل مطلع، وحين لا يعجبه مصطلح ينقده ويقترح غيره: عرض لإطلاق المتكلمين لفظة "القديم" على الله فأباها معللا ذلك بقوله :

"وذكروا شيئًا سموه (القدمة) وهذه اللفظة استعملها أهل اللغة العربية فيما تقدم زمانه زمان غيره كقولهم (الشيخ أقدم من الغلام، ودولة بنى أمية أقدم من دولة بنى العباس) وما أشبه ذلك، أما أهل الكلام فإنهم استعملوها فى الخبر عن المخلوقات والخالق تعالى، فسموا الواحد الأول عز وجل قديمًا، ونحن نمنع من ذلك ونأباه، ولا نزيل القديم والقدم عن موضعهما فى اللغة العربية ولا نصف به الخالق عز وجل البتة، وقد قال عز وجل : "كالعرجون القديم" يريد البالى الذى مرت عليه أزمنة مخلقة له بتطاولها، ونضع مكان هذه العبارة لفظة (الأول) والإخبار بأنه تعالى لم يزل، وأن جميع ما دونه – وهى كل المخلوقات – لم تكن ثم كانت، وأن كل شيء سواه تعالى محدث مخلوق، وهو خالق أول واحد حق لا إله إلا هو" .

أبى ابن حزم لفظة القديم للاشتراك فى معانيها فهى غير دالة على ما يراد منها فى صفة الله، فوضع للمراد لفظة (الأول) وهذا مثال واضح من تدقيقه اللغوى.

وفى جولاته فى ميادين الشريعة، يبتكر أحيانًا لتسهيل البحث وتوضيح المراد تقسيمًا أو تبويبًا لم يسبق إليه، ويحاول إيجاد المصطلح الملائم لهذه الأنواع فيرزق التوفيق، قسم الإجماع إلى (لازم) وهو ما تفق جميع العلماء على وجوبه أو على تحريمه أو على أنه مباح لا حرام ولا واجب، وإلى (إجماع جازىء) عبارة اشتققناها لكل صنف من صفته الخاصة به ليقرب بها التفاهم بين العلم والمتعلم والمتناظرين على سبيل طلب الحقيقة".

مذهبه فى هذا واضح لا يرى المصطلح إلا وسيلة للتفاهم والتقريب فلا ينبغى أن يختار له من الألفاظ إلا ما يحقق هذا المطلب.

وسنسأل بعد أن عرفنا آراء ابن حزم فى اللغة عامة وفى الترجمة وضع المصطلح، وهى آراء تحررت من تباع العادات المألوفة والتقاليد المتبعة، وتأبت على كل قيد، سنسأل : ما حكمه على علوم اللغة العربية وأساليبها المرسومة فى عصره؟ ما رأيه فى النحو وكتبه ومؤلفيه؟ هل انجر على طرق من قبله أم درس واجتهد ثم خرج على الناس بخطة رآها هى الأجدى ؟ إن آراءه – فيما أحسب – لا تعجب كثيرًا من عصرييننا كما لم تعجب أكثر عصرييه ومن بعدهم، إنه لا يرى كل هذا الاشتغال بالنحو ويكفى منه ما أبلغك الهدف وما سوى ذلك فلغو من القول وإضاعة للوقت، ولم يرسل القول إرسالاً فعل الكسالى يسوغون به تقاعسهم عن العلم أو عجزهم، لا ، أنه درسه فى مطولاته ومختصراته دراسة قاض لم يترك بينه فى الدعوى إلا فحصها ثم انتهى إلى ما قدمت لك، قال :

"أقل ما يجزئ من النحو كتاب (الواضح) للزبيدى أو ما نحا نحوه كـ (الموجز) لابن السراج وما أشبه هذه الأوضاع الخفيفة، وأما التعمق فى علم النحو ففضول لا منفعة بها، بل هى مشغلة عن الأوكد، ومقطعة دون الأوجب والأهم، وإنما هى تكاذيب!، فما وجه الشغل بما هذه صفته؟ وأما الغرض من

هذا العلم فهى المخاطبة وما بالمرء حاجة إليه فى قراءة الكتب المجموعة فى العلوم فقط. فمن يزيد فى هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل، لأنه لا منفعة للتزيد على هذا المقدار الذى ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشًا، فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال".

ومثل لما لا يحتاج إليه من هذا الفن بالمسائل الطوال "التى أدخلها أبو العباس المبرد فى صدر كتابه (المقتضب) فى النحو" وعلل حكمه بأن هذه المسائل "لا ترد على أحد أبدًا فى كتاب ولا فى كلام".

أما علل النحو فقد اشتد فى الحكم عليها كل الشدة، فإنها – فى رأيه – "كلها فاسدة لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتة، وإنما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع إليهم فى ضبطها ونقلها، وما عدا هذا فهو – مع أنه تحكم فاسد متناقض – فهو أيضًا كذب، لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل إلى كذا .. شيء يعلم كل ذى حسن أنه كذب لم يكن قط، ولا كانت العرب عليه مدة ثم انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك".

لقد فتح ابن حزم على نفسه جبهة ثانية – كما يقولون – تلقى فيها حملات مخالفيه من أنصار ذلك النحو، ثم صاروا يتربصون به كل حكم نحوى يرونه خطأ ليشنعوا عليه، كأن حملات الفقهاء من أنصار المذاهب حتى يومنا هذا لا تكفيه، لكن النحاة – على كل حال – أخف عنفًا وأقل سلاحًا، فليس فى أيديهم تكفير ولا تبديع ولا إخراج من سنة أو جماعة ... وحسبنا ذكر مثال واحد مما نقد به النحاة ابن حزم فى جزئية من جزئيات النحو، وذلك رأيه فى عود الضمير على المضاف إليه وهو ما أباه منتقدوه، فقد جاء فى كتابه (المحلّى) :

(وأما شعر الخنزير وعظمه فحرام كله، لا يحل أن يتملك ولا أن ينتفع بشيء منه لأن الله تعالى قال : (أو لحم خنزير فإنه رجس) والضمير راجع إلى أقرب مذكور، فالخنزير كله رجس" .

هذا مذهب ابن حزم، ومذهب غيره أن الرجس بهذا النص هو لحمه فقط، وانتشرت المسألة من كتب الفقه إلى كتب النحو فنقد أبو حيان فى تفسيره رأى ابن حزم هذا ونقله عنه جماعة، وقد رأيت فى مخطوط نادر طريف لجمال الدين الأسنوى (-٧٧٢هـ) من أهل المئة الثامنة للهجرة اسمه "الكواكب الدرية فى تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية" عرضًا لهذا الرأى كما يلى :

"مسألة – الضمير إذا سبقه مضاف ومضاف إليه وأمكن عوده على كل منهما على انفراده كقولك : (مررت بغلام زيد فأكرمته) فإنه يعود على المضاف دون المضاف إليه. لأن المضاف هو المحدث عنه والمضاف إليه وقع ذكره بطريق التبع وهو تعريف المضاف أو تخصيصه، كذا ذكره أبو حيان فى تفسيره وكتبه النحوية، وأبطل به استدلال ابن حزم ومن نحا نحوه ... على نجاسة الخنزير بقوله تعالى : "أو لحم خنزير فإنه رجس" حيث زعموا أن الضمير فى قوله تعالى فإنه يعود إلى الخنزير، وعللوه بأنه أقرب مذكور" من هذا المثال نلاحظ أن نقد النحاة لابن حزم نقد موضوعى خال من الحدة، مع أنه حمل على نحوهم وعلله وكتبه ونعتها بالفساد والكذب كما مر بك.

هذا ومع زهد ابن حزم فى كثير من النحو لا يسعنا إلا أن نعجب من استحسانه إحكام كتاب سيبويه، ويحق لنا أن نتساءل : من أحكم كتاب سيبويه فماذا بقى عليه ليستزيد؟ على كل قد خرجنا من سوء رأى ابن حزم فى غير الضرورى من النحو بحكم له فى الاختصاص نستخرجه من بين السطور،

حين أنصف المختصين فيه لأنه – كما يفهم من كلامه – لا ينبغى أن يخلو مجتمع من اختصاص ما مهما تقل الحاجة إليه فى رأى بعض الناس.

فإذا انتقلنا إلى رأيه فى علم اللغة حمدنا الله تعالى إذ كان رأيه فيه جميلاً، فهو ضرورى ولا يكتفى منه إلا بالقدر الصالح الكثير الذى نتمنى للمشتغلين فى اللغة اليوم أن يحكموا بعضه قال : "والذى يجزئ من علم اللغة كتابان : أحدهما (الغريب المصنف) لأبى عبيد ، والثانى (مختصر العين) للزبيدى ليقف على المستعمل بهما، ويكون ما عدا المستعمل منهما عدة لحاجة إن عنت يومًا ما فى لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب؛ فإن أوغل فى علوم اللغة حتى يحكم (خلق الإنسان) لثابت و(الفروق) له و(المذكر والمؤنث) لابن الأنبارى و(الممدود والمقصور والمهموز) لأبى على القالى و(النبات) لأبى حنيفه أحمد بن داوود الدينورى وما أشبه ذلك فحسن بخلاف ما قلنا فى علل النحو" وأوصى إضافة إلى ذلك بشيء من الشعر على أن يكون فى موضوع الحكم والخير، ومثل فى وصيته بشعراء الرسول حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن أبى رواحة، وشعر صالح بن عبد القدوس. ووصف أشعارهم بأنها "نعم العون على تنبيه النفس".

أما البلاغة فلم نعثر على شيء من تصانيفه فيها إلا أن مجمل آرائه فيها حوتها صفحة من كتابه فى المنطق، عرض فى أولها لقدامة بن جعفر وحكم لكتابه بالإحكام كما حكم لصديقه ابن شهيد بالتمكن فيها والقوة . ولم يفته ملاحظة أن البلاغة "قد تختلف فى اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعانى التى تتفق فى كل لغة" .

وهو يرى أن البلاغة تتحقق بتوفر شرطين : الوضوح، والبراءة من الاخلال والتطويل، قال : "البلاغة ما فهمه العامى كفهم الخاصى.. وملاك ذلك الاختصار لمن يفهم، والشرح لمن لا يفهم" و"كان بلفظ يتنبه له العامى لأنه لا

عهد له بمثل نظمه ومعناه، واستوعب المراد كله... وسهل عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه" .

وتصدى للبلغاء فصنفهم صنفيه : أحدهما مائل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصرى وسهل بن هارون، ثم يحدث بينهما قسم ثالث أخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة (كليلة ودمنة) ابن المقفع كان أو غيره. وأطلعنا على نوع من البلاغة أحدثه ابن دراج فى الأندلس "ما بين الخطب والرسائل" ومن أتى بعد هؤلاء من المتأخرين فحكمه منهم (أنهم بعيدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتزويد، حاشا الحاتمى وبديع الزمان فهما مائلان إلى طريقة سهل بن هارون) .

ولا يختم كلامه قبل أن ينبه إلى قيام البلاغة على ركيزتين الملكة والثقافة العامة مع كثرة ممارسة الكلام البليغ (ولا بد لمن أراد علم البلاغة من أن يضرب فى جميع العلوم .. بنصيب، وأكثر هذا القرآن والحديث والأخبار وكتب عمرو بن بحر ويكون مع ذلك مطبوعًا فيه وإلا لم يكن بليغًا، والطبع لا ينفع مع عدم التوسع فى العلوم) .

هذه بعض آراء الرجل وفلسفته فى اللغة وعلومها، أمكن اقتطافها وتنسيقها مما سمح به الزمن من مؤلفاته التى سلمت وطبعت، والأمل كبير فى نشر ما تحتفظ به المكتبات والمتاحف من التراث (الحزمى)، وكتب التاريخ والتراجم لم تتعرض لأثر له خاص فى اللغة وعلومها، والفضل كل الفضل للإمام الذهبى محدث دمشق وأخباريها فى المئة الثامنة للهجرة، فقد وجدنا فى ترجمته لابن حزم المقتطعة من كتابه (سير النبلاء) ما لم نجد فى غيرها ولا سيما فى تعداد مصنفاته فقد جاء فى ذيل كتبه الكبار أسماء ما ألفه فى جزء أو كراس، يتعلق منها بموضوعنا خمس رسائل هى :

١-مؤلف فى الظاء والضاد .

٢-شيء فى العروض.

٣-تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبى عامر.

٤-التعقيب على الإفليلى فى شرحه لديوان المتنبى.

٥-بيان الفصاحة والبلاغة.

ولئن كان هذا ضئيلا جدًا فى الدلالة على ملكاته اللغوية والأدبية، إن كتبه العظام فى الشريعة وجدله القوى فى نصرة مذهبه، معارض زاخرة تجلى فيها صياله وجولانه فى ميدان اللغة بما يدل على تمكن قوى وحسن استخدام لمعارفه فيها والتزامه المنهج السليم فى الاستدلال على ما يريد. وكم أحبط حجج خصومه بدقته اللغوية. وقد ظهرت آثار ثقافته اللغوية حتى فى تراثه الأدبى حين عالج موضوعات الحب، وكانت المصطلحات العلمية على طرف لسانه فى هذه الموضوعات، وقد سبق من قبل قوله فى موضوع غزلى :

ألـم تـر أنـى ظـاهرى وأننـى على مـا أرى حتـى يقـوم دليـل

وقال فى موضوع آخر :

أبت عن دنىّ الوصف ضـربة لازب

كما أبت الفعـلَ الحـروف الخـوافض

ليس لابن حزم إذًا – فى حدود ما وصل إلينا – كتاب فى النحو، ولم يعرف بإمامة فيه، (وليس يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة، وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التى سارت بذكرها الركبان، ألا يكون من أولى الشأن فى النحو بل من أهل الرأى فى أصوله، ومن غير البعيد لو تركت له الشريعة فراغًا أن يترك فى النحو آثارًا أصيلة مبتكرة) .

* *